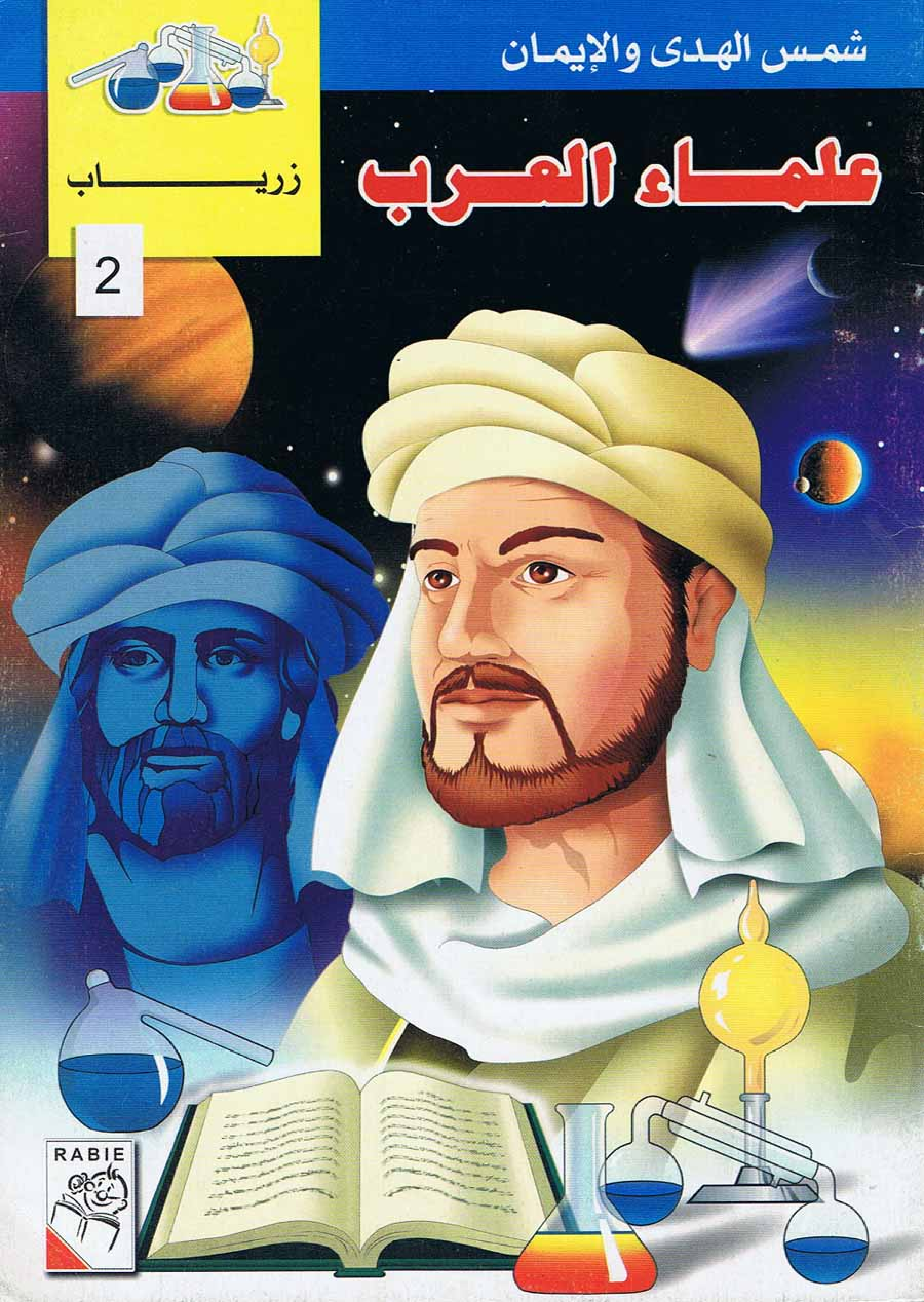

شمس الهدى والإيمان
علماء العرب
زرياب
2
RABIE

شمس الهدى والإيمان

علماء العرب

1 - 16 جزءاً

زريــاب

تأليف

محمد كمال

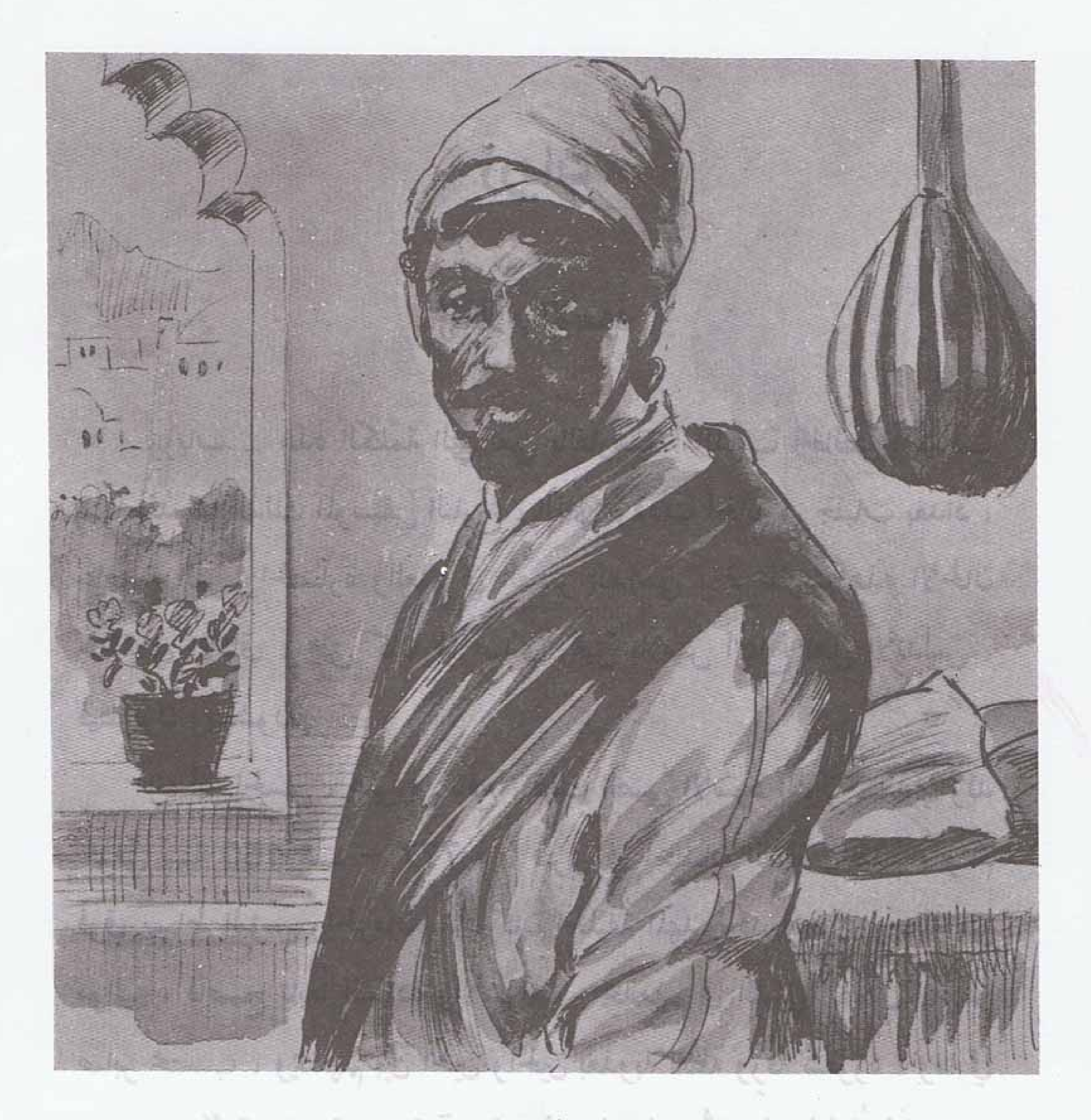


زرياب

الغلام الأسود

زِرْياب .. هذه الكلمة التي تعني بالفارسية : الذهبَ الخالصَ أصبحت فيما بعْدُ لَقباً لذلك الموسيقيِّ البارع ، الذي تردَّدتْ ألحانُه في جَنَباتِ بغدادَ ، عاصمةِ الفن والحضارة والعلم في العصر العباسي ، ثم طارت هذه الألحان محلِّقة في الآفاق ، حتى كان لها صدًى رقيقٌ يلامس أسماعَ أهل الأندلس ، فيطربون وينتشون .

إنه أبو الحسن ، عليُّ بنُ نافع ، ذلك الصبيُّ الأسودُ اللونِ ، الذي ولد حوالي سنة 160 هـ - 777 م ، فتربى في أحضان الفاقة والعُدْم ، ونامَ فوق بِساط البؤس والحرمان ، إذ كان الخليفةُ المهديُّ قد اشتراه وجعله من مواليه ، فأصبح تابعاً للسادة والأشراف ، يخدمهم في الليالي الطِّوال ، وهو صابر محتسب ، ويمتعهم بين الحين والحين بعذوبة لفظه ورِقَّة شعوره ، وما في صوته من نَبْرةٍ ساحرة ونغمة آسرة ، ثم توفي المهديُّ وهذا الطفلُ لم يتجاوزِ التاسعةَ من عمره ، إلا أنه كان قد مَلَكَ حريَّته ، لِمَا توسَّم فيه الخليفةُ من علامات الذكاءِ وفصاحة اللسان .



بغداد

كانت بغداد في القرن الثاني الهجريِّ قد توطَّدتْ فيها دعائمُ الخلافة العباسية ، وانتقل الناسُ من حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، فعمَّ التَّرَفُ

والنعيمُ ، وازدهتِ المدينةُ بالقصور الفاخرة ، والجِنان الغنَّاءِ ، والساحات الواسعة ، وانتشرت فيها الصناعاتُ اليدوية الفريدة والحِرَف المتطورة ، ففي كل حيٍّ مجلسٌ للعلماء ، وملتقىً للشعراء ، ومنتدًى لأهل الفنِّ والطرب والغناء ، فكثر المغنون والعازفون من الرجال والنساء ، حتى ظهر بينهم أساتذةٌ أتقنوا صناعة الطرب ، فراحوا يدرِّبون الجواريَ على فنون الغناء ويعلِّمونهنَّ العزفَ على الآلات الموسيقية المتنوعة ، إلى جانب تهذيب نفوسهن بألوان الشعر والأدب حتى تتمَّ بهن نشوةُ المجالس وبهجةُ المحافل .

وكان مما ساعد على هذه النهضة الفنية عنايةُ الخلفاء والولاة بهؤلاء المغنين والمغنّيات ، فكان في قصر الرشيد ما يقرب من ألف جارية يتسابَقْنَ إلى إتقان هذه الصنعة والمهارة فيها .

وكان زِرْياب لا يزال ربيبَ هذه القصور الزاهية والمجتمع الرفيع ، تنمو حواسُّه وتتيقَّظ مَلَكاتُه ، ويتعلم مما حوله رقَّة الذوق ونعومةَ السلوك ، ويصقل ذاته بروائع الشعر وبدائع الأدب .

على مقاعد الدرس

تلقى زرياب تعليمَه الأوَّلَ في الغناء والعزف على يَدَيْ إبراهيمَ المَوْصِليِّ ، الذي كان سيِّدَ المعلمين في بغداد ، يقصده طلاب هذه الحِرْفة ، فيأخذون عنه أصولَ الطرب والغناء ، وأساليب العزف على الآلات .

وكان من أنجب تلامذة إبراهيمَ وأكثرِهم استفادةً منه ابنُه إسحاقُ المَوْصليُّ ، فلمّا مات إبراهيمُ ورث إسحاقُ الشهرةَ والمجد ، وتربع على كرسي التعليم خَلَفاً لأبيهِ ، فكان عالماً فقيهاً وشاعراً أديباً ، يستقبله الخلفاء ويُدْنونه من مجالسهم ، لِمَا في أحاديثه من ظَرْف ودُعَابة ، ولِمَا كان يحفظ من أخبارِ القدماء وأقوالِ الحكماء والشعراء ، فضلاً عن أنه كان مغنياً بارعاً ، وعازفاً ماهِراً ، وملحناً مجيداً ، فكانت صنعته مُحكَمةَ الأصول ، ونغمتُه عجيبةَ الترتيب ، وقِسْمتُه معدَّلة الأوزان ، يجمع قوَّة الطبعِ إلى سهولة المسلَكِ ، فيخرج من شِدَّةٍ إلى لِيْنٍ ، ومن لِينٍ إلى شِدَّةٍ ، فضبط الأوزانَ الشرقية ، وحدَّد المقامات .

وكان زرياب يلازمه ملازمةَ الظلِّ ، وينهلُ من علومِه وفنونِه ، فيلتقطُ الحروفَ التقاطاً حسناً ، ويحفظ النغماتِ حِفظاً متقناً ، فتثبُتُ في ذاكرتهِ كما تثبت الصُّوَرُ على شاشةٍ بيضاءَ صافيةٍ ، حتى قَبَضتْ أناملُه الفتيّةُ على أوتار العود ، فراحَ يداعبُ نغماتِها الرواقصَ ، تتجاوب مع صوته العذبِ ، فتهتزُّ له الأفئدةُ طرباً ، وتمتلئُ نشوةً وحُبوراً .

الامتحان الخطير

عندما بلغَ زرْيابُ العشرين من عمره كان قد أتقن معظمَ قواعدِ الفن الموسيقيِّ وأصولِهِ ، وأخذ ذَوْقُه الموسيقيُّ ينتقلُ به من دَوْر الطالب المتلقي إلى دَور المنتج المبدع ، فهاهم أولاءِ السُّمّارُ في أروقةِ بغدادَ يُصْغُون إلى غِنائه

وعزفِهِ ، فيسحر آذانَهم حُسْنُ أدائه ، وقدرتُه على التنقل من لحن إلى لحن ، ومن مقام إلى مقام ، وهو لا ينكر في ذلك كلِّه فضلَ أستاذِه إسحاقَ المَوْصِليِّ عليه ، وإخلاصَه في تعليمه وتثقيفه .. ثم جاء الامتحانُ الخطيرُ .

فقد دعا الخليفةُ هارونُ الرشيدُ إلى حفل يقام في بَلاطِه وطلبَ من إسحاقَ الموصلي الذي كان سيِّد المحافلِ آنذاك أن يُحضِر معه مَنْ يثقُ بهم من العازفين الجُدُد والمغنين الناشئين ، فوقع اختيار إسحاق على تلميذه النجيب زِرْيابَ .

غير أن زريابَ ، مع تَهَيُّبه من المُثولِ بين يَدَيِ الخليفةِ ، غمره السرورُ العارمُ ، لأنه إذا تحقق له النجاحُ في هذا الحفل ، فإن آفاق الشهرة والمجد سوف تمتدُّ أمامه ، وسيبدأ بعدَها صفحةً جديدةً من حياته .

والتأمَ مجلسُ الخليفةِ ، واصطفَّ العازفون والمغنون ينتظرون الإشارة ببدء الحَفْل ، ويلتفتُ الخليفةُ فتقعُ عينُه على زِرْيابَ ، هذا الشاب الناشئِ الذي لم يسبِقْ له أن رآه من قَبْلُ ، فدعاه إليه ، وأخذ يمتحنه ويسأله عن فن الغِناء وأصوله ، ليستوثق منه ويتحققَ من معلوماته ، فإذا بزريابَ يتماسكُ ، ويضبط نفسَه ، فينطلق لسانُه بفصاحة نادرة وبديهة حاضرة ، ويجيب الخليفة قائلاً :

– أُحْسِنُ منه ما يُحْسِنُه الناسُ ، وأَكثرُ ما أُحْسِنُه ممَّا لا يُحسنُونَه ، ولا يَحْسُنُ إلا عندكَ ، ولا يُدَّخَرُ إلا لكَ ، فإن أَذِنْتَ غنَّيْتُكَ ما لم تسمَعْه أُذُنٌ قَبْلَكَ .

فتعاظمت الدهشةُ في عيني الخليفة مما سمع ومما رأى ، وأمر على الفور بإحضار عُوْد أُستاذه إسحاق الموْصلي ليعزفَ عليه ، ولكنَّ زِرياب أبى أن



يتناول العود ، وقال للخليفة :

- لي عُوْدي ، نحتُه بيدي ، وأرهفْتُه بإحْكامي ، ولا أرتضي غيره .

فاستجاب الرشيد لما طلب زريابُ ، وسمح لهُ أن يُخرِج عودَهُ ، وسأله : ما منعك أن تستعمل عُودَ أُستاذكَ ؟

فأجاب زرياب بكل ثقة واعتدادٍ بالنفس :

– إن كان مولاي يرغبُ في غناءِ أستاذي غنَّيته بعوده ، وإن كان يرغب في غنائي فلا بُدَّ لي من عودي .

فنظر الرشيد إلى العُودَيْنِ ، وقال مستغرباً :

– ما أراهما إلا واحداً ! فأجابه زرياب :

– صدقْتَ يا مولاي ، ولا يؤدِّي النظرُ إلى غيرِ ذلك ، ولكنَّ عودي ، وإن كان في قَدْرِ حجمِ عُوْدِه ، ومن جِنْسِ خَشَبِه ، فهو يقعُ من وَزْنِه في الثُّلُث أو نحوِهِ ، وأوتاري من حَريرٍ لم يُغسَلْ بماءٍ ساخن يُكسِبُها أنوثةً ورخاوةً .

ثم اندفعَ زريابُ يغنّي بصوته الرخيم :

يا أيها الملكُ الميمونُ طائِرُه   هارونُ راحَ إليكَ الناسُ وابتكروا

فطربَ الرشيدُ أيّما طربٍ ، وأمرَ إسحاق برِعايةِ زريابَ والعناية به .

واشتعلت الغَيْرَةُ ..

خرجَ زريابُ من مجلسِ الخليفةِ فرِحاً مستبشراً ، يحملُ في طيّاتِ نفسه آمالاً بِيضاً وأحلاماً عِذاباً ، وخرج إسحاق مغموماً مُطرِقاً ، والغَيْرة العمياءُ

تلدَغُ فؤادَه ، وتفتّت كَبِدَه ، فلما أصبحا في بعض الطريق ، التفتَ إسحاقُ إلى تلميذه زريابَ وقال له :

– (إن الحسدَ أقدمُ الأدْواءِ ، والدنيا فتّانَةٌ ، والشّرْكة في الصّناعة عداوةٌ ، ولا حِيلةَ في حَسْمِها ، وقد مكَرْتَ بي فيما انطويتَ عليهِ من إجادَتِك وعُلُوِّ طبقتِكَ ، وقصدتُ منفعَتَكَ ، فإذا أنا قد أَتَيتُ نفسي من مَكْمَنِها بإدنائِكَ ، وعن قليل تسقطُ مَنْزلتي وترتقي أنتَ فوقي ، وهذا ما لا أصاحِبُكَ عليه ، ولو أنك ولدي ، ولولا رَعْيِي لذِمَّة تربيَتِكَ لما قدَّمْتُ شيئاً على أن أُذْهِبَ نفسَكَ ، وليكنْ في ذلك ما كان ، فتخيَّرْ في اثنتينِ لابُدَّ لكَ منهما : إمّا أن تذهبَ عني إلى الأرض العريضة ، لا أسمعُ لك خَبَراً بعد أن تُعطِيَني على ذلك الأَيْمانَ الموثّقةَ ، وأُنهِضُكَ لذلك بما أردتَ من مال وغيرِهِ ، وإمّا أن تُقيمَ على كُرْهي ورُغْمي ، مستهدَفاً لسهامي ، فإني لا أَبقي عليك ، ولا أَدَعُ اغْتيالَكَ ، باذلاً في ذلك بدني ومالي ، فاقضِ قضاءَكَ) .

الفرار إلى القيروان

وقف زرياب حائرَ اللبِّ ، مشتّتَ الذِّهْنِ ، مما سمع من كلام أُستاذه وتهديده إيّاه ، فما أحراه أن يجهِّزَ نفسَه للهرب ، قبل أن يستفحِلَ الأمرُ وتَعظُمَ المُصيبةُ ، فأَرْضُ الله واسعةٌ (وكلُّ مكانٍ يُنبتُ العزَّ طَيِّب) .

خرجَ زرياب من بغداد متخفّياً يستُرُه الليلُ ، وسارت راحِلتُه تطوي القِفارَ وتعبر الأنهار ، ويلاقي هو وزوجتُه وأولادُه ألواناً من المصاعب

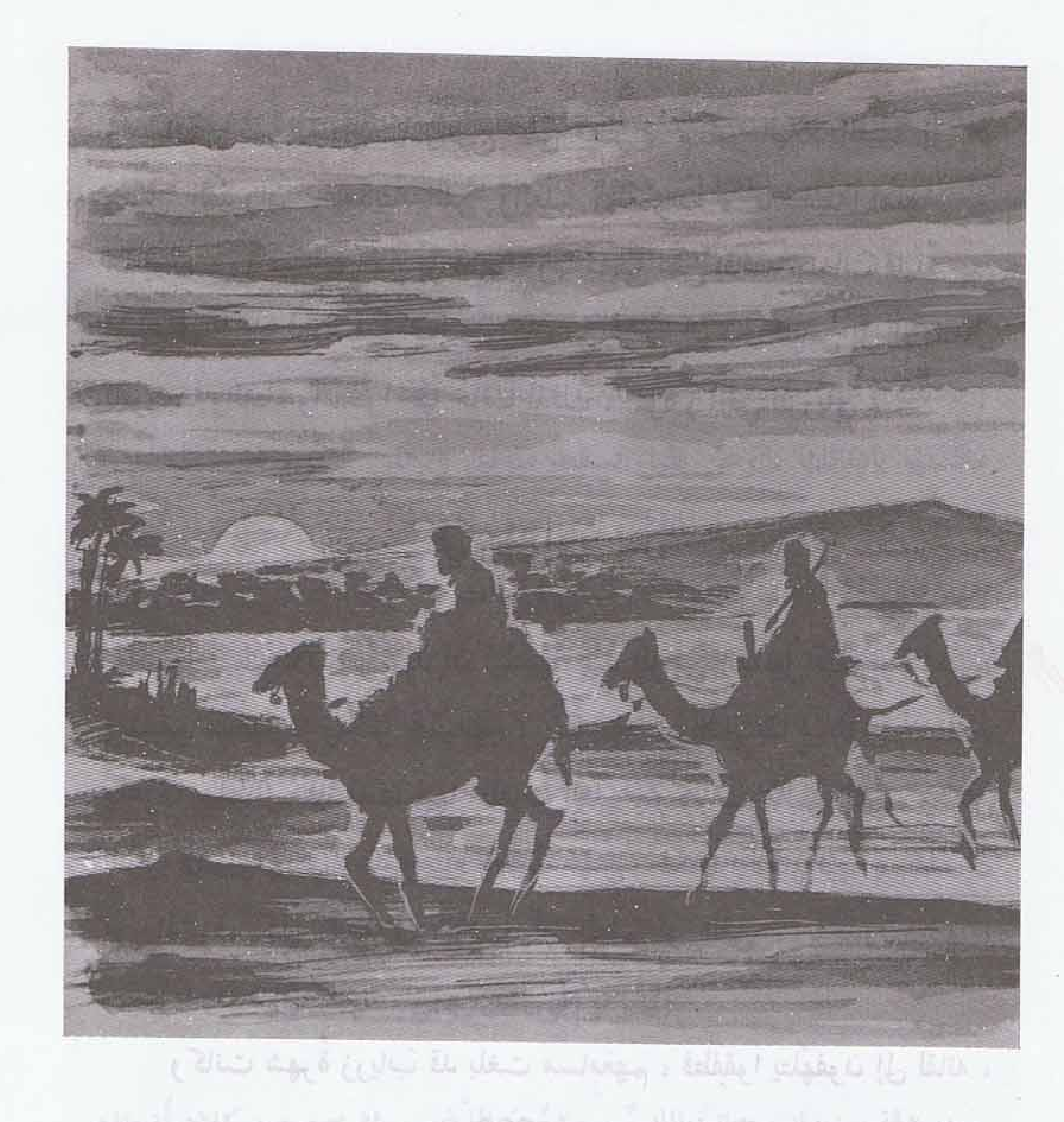
والمشاقّ ، فمرَّ بسوريةَ ، وعرَّج على مِصْرَ ، ثم عبر البلاد الليبيةَ إلى أن وصل القَيْروانَ ، مدينةَ الفنِّ والعِلْمِ والعُمْرانِ ، فاستقبلَهُ أهلُها خيرَ استقبالٍ ، ورحَّبوا به أجملَ ترحيب . وما مضى على إقامته سنواتٌ قليلةٌ حتى أشاع في البلاد نهضةً فنية غنائية ، كان من ثمراتها أن مالَ الناسُ إلى الاشتغالِ بالموسيقا والغناء وأسَّسوا حيّاً خاصّاً لذلك ، سموه (الحيَّ الزريابيَّ) .

في ربوع الأندلس

ما فَتِئت الأندلسُ منذ أن أسَّسها عبدُ الرحمن الداخلُ تنمو وتزدهر ، ويستقرّ مُلْكُها ، ويكثرُ عُمْرانُها ، حتى غدت أجملَ بِقاع الدنيا جناناً ، وأعزَّها سلطاناً ، فاتّسعت فيها حلقاتُ العلم ، وكثرتْ مجالسُ الفن ، وعاش الناس في ربوعها في رَغَدٍ وهَنَاء وطِيبِ عيشٍ . فكان الحُكّامُ فيها يستقدمون من المشرقِ كلَّ نابغةٍ في الأدبِ أو العلم أو الفن ، يأخذون عنه ، ويستزيدون من فضلِهِ .

وكانت شهرةُ زريابَ قد بلغت مسامعَهم ، فطفِقوا يتلهّفون إلى لقائه ، ويتوقون إلى سماعِهِ . ففي عام 206 هـ وصل إلى القيروان منصورٌ المغني رسولاً من الخليفة الحَكَمِ بنِ هشام ، يدعو زريابَ إلى زيارة قُرْطبةَ ، والمُثُولِ بين يَدَي الخليفة .

سُرَّ زيابُ بهذه الدعوة سُروراً بالغاً ، فانطلق بصحبة منصور ، وكلّه أمَلٌ في أن تطأ قدماه تلك الجزيرةَ الخضراء ، حيث الطبيعةُ والفنُّ والجَمَالُ .



ولكنه فُوجِىء قبلَ وصولهِ بموتِ الخليفة ، وتولّي ابنِهِ عبدِ الرحمنِ بنِ الحَكَم أمورَ الخلافة . فاغتمَّ لذلك غمّاً شديداً ، وهمَّ بالعودة إلى القيروان ، لولا أن بلغه أن الخليفةَ الجديدَ متشوّقٌ للقائه ، وأنه بعث إلى نُوّابه في المدن التي سيمر بها زرياب يوصيهم بإكرامه والاحتفال به .

ولما وصل زريابُ قرطبةَ خرجَ عبدُ الرحمنِ بنُ الحَكَم نفسُه ، ومعه حاشيتُه يستقبلون هذا المطربَ البارعَ والعازفَ المُجيدَ . وبعد أيامٍ من استقراره في قرطبة ، خصص له الخليفةُ مُرَتَّباً قدرُه مئتا دينارٍ في الشهر ، وقرَّر له ثلاثةَ آلافِ دينارٍ في كلٍّ من العيدَيْنِ ، بالإضافة إلى الهِباتِ والهدايا السنية ، والدارِ الواسعةِ التي هُيِّأَتْ فيها كلُّ وسائلِ الراحة والرَّفاهية .

وهكذا غدا زريابُ سيِّدَ الطرب والغناء في مجلسِ الخليفة ، يُنشد في بَلاطه كلَّ يوم لحناً جديداً أو مقاماً مبتكراً ، إذ كان يحفظ عشرةَ آلافِ مقطوعةٍ بألحانها وأوزانِها ، يؤدِّيها بذوقه الخاصِّ وفنِّه الرفيعِ .

المعهد الموسيقي

ليس عجيباً أن يتصدَّرَ زريابُ المجالس والمنتديات ، ويتقدم على غيره من المغنين والعازفين ، وأن يُهْرَعَ أهلُ الطرب والمولعون بالغناء إلى الاستمتاع بصوتِه السّاحرِ ، والإصغاء إلى عزفه المتميزِ .

وليسَ عجيباً أيضاً أن يُنشئَ زريابُ في الأندلس معهداً موسيقيّاً ينتسب إليه أصحابُ المواهبِ الفنيةِ الذين يريدون أن يُشبِعوا ميولَهم الفنيةَ ، وهم يحلُمُون بالمركز الذي يحتلُّه أستاذُهم زرياب .

فلقد أحدث زريابُ في الأندلس أُسلوباً مبتكراً في تعليم الغناء وتلقين الألحان ، وَفْقَ مَنْهج تربويٍّ يعتمدُ على ثلاث مراحلَ : ففي المرحلة الأولى يعلِّم تلامذتَه الإيقاعَ في قراءة شعر الأغنية الملحَّنةِ ،



فيضربُ التلميذُ على الدُّفِّ ، حتى يُتقِن زمنَ الإيقاع وحركاته . وفي المرحلة الثانيةِ يدرِّبُهم على اللحنِ الأساسي في شكله البسيط غير المعقد . وفي المرحلةِ الثالثةِ يُعلِّمهم ترديدَ الصوتِ وزخرفةَ الغناء ، وكيفيَّةَ التعبير عن

المعاني بالصوت . حتى إذا أتقن التلميذُ هذه المراحل أصبح مهيئاً للمشاركة في شتى الاحتفالات .

كما تضمن منهجُ الدراسة في هذا المعهد تعليمَ مختلفِ أنواع العزف والغناء والتلحين والشعر والرقص ، مما كان له أكبرُ الأثرِ في النهوض بالموسيقا والشعرِ في بلاد الأندلس ، بل في الكثير من البلاد الأوروبية .

وقد عمل زِريابُ على تنشيط الثقافة الفنية في الأندلس ، إذ أرسل في طَلَبِ مجموعةٍ من المغنِّياتِ اللاتي جَرَى تخرُّجُهُنَّ على أيدي أعلامِ الغناء في الحجاز والشامِ وبغداد ، وعندما وصلت المغنياتُ من المدينة المنوَّرةِ ابتنى الخليفةُ لهُنَّ داراً خاصة سميت (دار المدنيات) .

ويقال إن أحد المجالس الأندلسية اشترك فيه مئتان من المغنين والمغنيات ، يضربون بمختلِفِ الآلاتِ من عيدانٍ وطنابيرَ ومزاميرَ .

وقد سجَّل التاريخُ لزريابَ أنه أدخلَ الوَتَر الخامسَ على أوتار العود ، وجعَلَه باللون الأحمر ، وهو يقوم مقامَ النَّفْس للجَسَدِ ، بعد أن كانت الأربعةُ الأولى تمثِّل الطبائعَ البشريةَ الأربعَ .

كما سجلَ له أنه أولُ من جعل مَضرِبَ العُوْدِ من قَوادِمِ النَّسْر بعد أن كانت من أعواد الخشب .

النجم الاجتماعي اللامع

لقد نظرَ الناسُ إلى زريابَ على أنه سفيرٌ من سفراءِ الحضارة والمدنية إلى الأندلس ، فأخذوا يقلِّدونهُ في مَلبَسه ومأكَلِه وسائرِ عاداته ، ويتعلمون منه اللّياقةَ والذوقَ وحُسْنَ التصرّف في كثير من الشؤون .

فقد تعلّموا منه فنَّ اختيارِ الملابس لكل فصلٍ من فصول السنة ، فكان يرتدي الأقمشةَ الخفيفةَ ذاتَ الألوان الزاهية في فصل الربيع ، والأثواب البيضاء الفضفاضة في الصيفِ ، ومعاطف الفِراء وأغطية الرأس في الشتاء .

وتعلّموا منه وَضعَ غطاءٍ ناصع البياضِ على موائدِ الطعام ، واستخدامَ الأكْوابِ المصنوعةِ من الزُّجاجِ عوَضاً عن أواني الذهب .

وتعلّموا منه أصنافاً متنوعة من الأطعمة الشهيَّة ، ومن بينها (الزلابية) التي يقال إنها تحريف عن (الزريابيّة) ، وهي رقائقُ من العجين تُقْلى بالسَّمن ، ثم يرش عليها مدقوقُ السُّكَّر والقِرفة .

وكان الرجالُ والنساء في الأندلس يرسلون شَعْرَهم مفروقاً وَسْطَ الجبين ، هابطاً على الحاجِبَيْنِ والصُّدْغَيْنِ ، فلما رأوا زريابَ يُمَشِّط شَعْرَه ويقصِّرُه ويَلُمُّه إلى وراء أُذُنه ، اقتدوا به وساروا على منواله .

وفي عام 230 هـ – 845 م ، سكت هذا البلبلُ الغرِّيد عن الغناء ، وصَعِدتْ رُوحُه إلى بارئِها ، الخالقِ العظيمِ ، بعد أن أقام للموسيقا الأندلسية صَرحَها الشامخَ ومَجْدَها الخالد .

علماء العرب

سلسلة قصصية تروي الجانب الهام من حياة علماء العرب الذين كانوا وما زالوا مجال العزة والفخار.

1 - جابر بن حيان
2 - زرياب
3 - الكندي
4 - الجاحظ
5 - أبو بكر الرازي
6 - الفارابي
7 - ابن سينا
8 - الحسن بن الهيثم
9 - البيروني
10 - ياقوت الحموي
11 - الشريف الادريسي
12 - ابن الأثير
13 - ابن بطوطة
14 - ابن خلدون
15 - الجبرتي
16 - عبد الرحمن الكواكبي



تأليف: محمد كمال
الغلاف: هيثم فرحات



تم نشرها من قبل دار ربيع للنشر حلب ، سوريا

Published by Rabie Publishing House Aleppo , Syria
P.O.Box : 7381 Tel : +963 21 2640151 Fax : 2640153
E-mail : rabie@rabie-pub.com WWW.rabie-pub.com

